معجزة وأراهم كيف يتعرفون أهو من عند الله كما يدعي أم هو من عند نفسه كما يدعون
بإرشادهم إلى أن يحزروا أنفسهم ويذوقوا طباعهم وهم أبناء جنسه وأهل جلدته
فإن قلت لم قيل مما نزلنا على لفظ التنزيل دون الإنزال قلت لأن المراد
النزول على سبيل التدريج والتنجيم وهو من مجازه لمكان التحدي وذلك أنهم كانوا
يقولون لو كان هذا من عند الله مخالفا لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نجوما سورة
بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما نرى عليه
أهل الخطابة والشعر من وجود ما يوجد منهم مفرقا حينا فحينا وشيئا فشيئا حسب
ما يعن لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السانحة لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة
ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة
جملة واحدة فقيل إن ارتبتم في هذا الذي وقع إنزاله هكذا على مهل وتدريج فهاتوا
أنتم نوبة واحدة من نوبه وهلموا نجما من نجومه سورة من أصغر السور أو آيات
شتى مفتريات وهذه غاية التبكيت ومنتهى إزاحة العلل وقرئ على عبادنا يريد رسول
الله وأمته والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي أقلها ثلاث آيات وواوها إن كانت
أصلا فإما أن تسمى بسورة المدينة وهي حائطها لأنها طائفة من القرآن محدودة محوزة
على حيالها كالبلد المسور أو لأنها محتوية على فنون من العلم وأجناس من الفوائد كاحتواء
سورة المدينة على ما فيها وإما أن تسمى بالسورة التي هي الرتبة قال النابغة ⁂ ⁂ ⁂
⁂ ⁂ ولرهط حراب وقد سورة ⁂ في المجد ليس غرابها بمطار ⁂ ⁂ ⁂
لأحد معنيين لأن السور بمنزلة المنازل والمراتب يترقى فيها القارئ وهي أيضا في أنفسها
مرتبة طوال وأوساط وقصار أو لرفعة شأنها وجلالة محلها في الدين وإن جعلت واوها
منقلبة عن همزة فلأنها قطعة وطائفة من القرآن كالسورة التي هي البقية من الشيء والفضلة
منه فإن قلت ما فائدة تفصيل القرآن وتقطيعه سورا قلت ليست الفائدة في
ذلك واحدة ولأمر ما أنزل الله التوراة والإنجيل وسائر ما أوحاه إلى أنبيائه على هذا المنهاج
مسورة مترجمة السور وبوب المصنفون في كل فن كتبهم أبوابا موشحة الصدور بالتراجم
ومن فوائده أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع واشتمل على أصناف كان أحسن وأنبل وأفخم
من أن يكون بيانا واحدا ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابا من الكتاب كان أنشط له
وأهز لعطفه وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله ومثله المسافر
إذا علم أنه قطع ميلا أو طوى فرسخا أو انتهى إلى رأس بريد نفس ذلك عنه ونشطه ⁂
للسير ومن ثم جزأ القراء القرآن أسباعا وأجزاء وعشورا وأخماسا ومنها أن الحافظ إذا
حذق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة بنفسها لها فاتحة وخاتمة
فيعظم عنده ما حفظه ويجل في نفسه ويغتبط به ومنه حديث أنس رضي الله عنه كان الرجل إذا
قرأ البقرة وآل عمران جد فينا ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة تامة أفضل ومنها
أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض وبذلك تتلاحظ
المعاني ويتجاوب النظم إلى غير ذلك من الفوائد والمنافع من مثله متعلق بسورة
صفة لها أي بسورة كائنة من مثله والضمير لما نزلنا أو لعبدنا ويجوز أن يتعلق بقوله ⁂
فأتوا والضمير للعبد فإن قلت وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المثل
قلت معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب وعلو الطبقة
في حسن النظم أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشرا عربيا أو أميا لم يقرأ الكتب ولم يأخذ
من العلماء ولا قصد إلى مثل ونظير هنالك ولكنه نحو قول القبعثري للحجاج وقد قال له
لأحملنك على الأدهم فقال مثل الأمير حمل على الأدهم والأشهب أراد من كان على صفة الأمير
من السلطان والقدرة وبسطة اليد ولم يقصد أحدا يجعله مثلا للحجاج ورد الضمير إلى
المنزل أوجه لقوله تعالى فأتوا بسورة مثله فأتوا بعشر سور مثله على أن يأتوا بمثل
هذا القرآن لا يأتون بمثله ولأن القرآن جدير بسلامة الترتيب والوقوع على أصح
الأساليب والكلام مع رد الضمير إلى المنزل أحسن ترتيبا وذلك أن الحديث في المنزل
لا في المنزل عليه وهو مسوق إليه ومربوط به فحقه أن لا يفك عنه برد الضمير إلى غيره
ألا ترى أن المعنى وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فهاتوا أنتم نبذا مما يماثله